مقتبسات تراثية من ادب بلاد الرافدين

Heritage Quotes from the Literature of Mesopotamia

أ.م.د رشا عبد الوهاب محمود الجمعة
Asst. Prof. Dr. Rasha Abdel Wahab Mahmoud Al-Juma'a
جامعة سامراء /كلية الاثار
University of Samarra / College of Archeology
E-mail: rasha.abd@uosamarra.edu.iq

الكلمات المفتاحية: نصوص ادبية، السلوك البشري، الفطرة، خسوف القمر، الملح، سلوكيات الحداد.

Keywords: Literary texts, human behavior, instinct, lunar eclipse, salt, mourning behavior.

الملخص

إذا ما تمعنا في ادب بلاد الرافدين ومن خلال تلك القصـــص (الملاحم والاســـاطير و المراثي) فنجد أنها عبارة عن قصــص اصــلها افكار او خيالات الكهنة توارثتها الاجيال وما زلنا نراها تلوح من خلال الحكايات الشـــعبية والافعال العقائدية لدى المجتمع الحالي و كانت غايتها بالأصـل تهدف من خلال سـردها لإضـفاء الشـرعية للمفاهيم الدينية التي يريدون ايصـالها للناس ليحققوا الوصـــول الى الطاعة المطلقة في تنفيذ الاوامر الملكية و المزعومة بأنها اوامر للآلهة سواء بطريقة الترغيب أم الترهيب، وان في توارث تلك القصص والمعتقدات احترام التقاليد الدينية والمجتمعية، والذي يؤدي ذلك بدوره لاســتقرار و لاســتتباب الأمن في المجتمع وترســيخ القيم المجتمعية ولاســيما الاعتزاز بالموروث وتأصــيل تلك المجتمعات بأحقيتها بذلك الموطن (بلاد الرافدين)، كما ان تلك القصــص والافعال والســلوكيات المتوارثة تناقلتها الاجيال جيلا بعد جيل مع تحويرات واضافات من دون التغير في الفكر و الجوهر الفطري او المكتسب او حتى السلوك الطقوسي للنص الادبي.

Abstract

If we look at the literature of Mesopotamia and through those stories (epics, legends, and elegies), we find that they are stories whose origins are the ideas or fantasies of priests that have been inherited by generations, and we still see them waving through folk tales and doctrinal actions of the current society, and their purpose was originally aimed through their narration. To legitimize the religious concepts that they want to communicate to people in order to achieve access to absolute obedience in the implementation of royal orders, which are alleged to be orders of the gods, whether in a way of enticement or intimidation, and that in the inheritance of these stories and beliefs respect religious and community traditions, which in turn leads to stability and security in society and the consolidation Societal values, especially the pride in the heritage and the rooting of those societies with their entitlement to that homeland (Mesopotamia), and those stories, actions and inherited behaviors were passed down from generation to generation with modifications and additions without changing the innate or acquired thought and essence or even the ritual behavior of the literary text.

المقدمة

تعد النصوص الادبية مصدر من مصادر دراسة العلاقات المجتمعية للشعوب، لما تزخر به من معلومات واحداث وقعت في تلك الازمنة وما دار بها من أحداث، وغلفتها مشاعر ومفاهيم ذلك العصـر، وبسبب قلة او انعدام المذكرات الشـخصـية يلجئ الباحث عندئذٍ لدراسـة الاسـلوب النمطي للحياة الاجتماعية من خلال النصـوص الادبية، والتي توفر بدورها الكثير من التفاصـيل بشكل مباشر او غير مباشر وذلك بحسب ما تذكره النصوص ويستنتجه الباحثون.

وعلى الرغم من كثرة النصـوص المسـمارية التي اوردتنا من حضـارات بلاد الرافدين الا انها تفتقر الى تدوين مذكرات الافراد اليومية او الأسـبوعية أو شـهرية او حتى السـنوية الا اننا نسـتطيع ان نرصـد عدد لا باس به من العادات التي ربما كان معظم الناس يقومون بها يوما او على اقل تقدير بين فتره واخرى ولا شـــك بان هناك الكثير من المعلومات التي تصـــل الينا من النشاط اليومي ولكن يمكن للقارئ ان يطلع على النشاطات الاجتماعية التـي قام بها سـكان بلاد الرافديـن ان ذاك.

سـنبين خلال متن البحث بعض من العادات والتقاليد والاقوال والتي توارثها سـكان بلاد الرافدين عبر الاجيال، مقتبسا اياها من ذلك المجتمع عبر الالاف السنين، وقد توصلنا الى ذلك من خلال النصـــوص الادبية التي افصـــحت عن ذلك الاقتباس، اذ تناول البحث ثلاثة محاور رئيسـية مفصـلا فيها وصـف المقتبسـات الاجتماعية، اذ يتحدث المحور الاول عن مقتبسـات سـلوكية فطرية، والمحور الثاني يتناول مقتبسـات سـلوكية مكتسـبة بينما يتناول المحور الثالث مقتبسات سلوكية طقوسية توصف البعد العقائدي للمجتمع.

الادب في بلاد الرافدين

تعد طبقة الكهنة في مجتمع بلاد الرافدين القديم هي الطبقة المثقفة باعتبارها ارفع طبقات المجتمع بكون اغلب الكهنة يجيدون الكتابة والقراءة اذ حرصـــوا على تدوين التراتيل الدينية والادعية والصـلوات ومن هنا حظيت النصـوص الادبية بالتنوع الموضـوعي الذي يغني الباحثين حول السـلوك المجتمعي، حيث حرص الكهنة على اسـلوب ذكر المعطى والهدف خلال تلك النصـوص ليحققوا الوصـول الى الطاعة المطلقة في تنفيذ اوامر الالهة المزعومة سـواء بطريقة الترغيب أم الترهيب، ومن دون مناقشه و احترام التقاليد الدينية للمحافظة على الاستقرار واستتباب الأمن في المجتمع، اذ وضـــحوا للناس بأن هناك جزاء توقعه الآلهة بكل من يخالف تلك الاوامر أو يظهر العصيان فأخذوا يوضحون للناس الافعال المحرمة التي تغضب الاله من خلال سردهم لتلك القصص التي يبينوا فيها قدرة الآلهة على أنزال العقاب في حال مخالفة الاوامر الالهية [1]

مقتبسات سلوكية فطرية

الفطرة: لا يخرج المعنى الاصـــطلاحي لها عن المعنى اللغوي، وقد وضـــع العلم للفطرة العديد من التعاريف التي توضـــح معناها لا تخرج عن المعنى اللغوي لها واهم ذلك ما قاله القرطبي " الفطرة هي الخلقة التي خلق عليها المولود"، كما عرفت الفطرة بانها حالة التوحيد وعدم الشرك، وفيها توجيه الغرائز والمشاعر الانسانية وخصائصه الجسدية والنفسية [2]

تعد السلوكيات الفرد الفطرية من أهم النشاطات الاجتماعية التـــي تقوم بها المجتمعات البشرية بدون تكلف أو تصنع وعلى غرار ذلك ســـكان بلاد الرافديـــن ان ذاك [3] اذ حصنوا انفســـهم وبيوتهم (اموالهم) بتعاويذ محررة على قطع من الطين او الحجر وكانت تلك التعويذة تحمل صـــورة الجني الذى يطلب الحماية كما يحمل تعاويذ ســـحرية تناشـــد الالهة العظام ضـــد الشرير المحدق بالأفراد و الخطير المحتملة ومن هذه التعاويذ ما نصه:

"تعويذة: ذلك الشـــخص الذي اقترب من البيت واخافني من منامي ومزقني وجعلني ارى احلاما مزعجة، دعهم يعينوه عند الاله (باين) حارس بوابة العالم الســـفلي بأمر الاله مردوخ الذي يسكن في ايساكيلا في بابل دع الباب والمزلاج يعرف بأني تحت حماية الالهين"[4].

يعتقد سكان بلاد الرافدين من المتعبدين ان إرضاء الالهة التي تتحكم بقوى الطبيعة كلها، يرون ان الطقوس الدينية والتعاويذ والتراتيل الدينية لها علاقة وثيقة بحالتهم الاقتصـادية والصـحية والاجتماعية[5] ونجد صدى ذلك من خلال النص الاتي :_

" انت كسرت نير الثور القوى.

انت كسرت ساق الحمار السريع.

انت كسرت (şişitu) (جزء من نول) المرأة الماهرة الحائكة.

انت جعلت مهر الحصان السريع يسقط ورفيق الثور يسقط.

انت نثرت الاسنة من ضوء المرقد.

بامر ادد انت تقتلين باصابة الحيوانات الوحشية.

انت تؤججين القتال بين الاخوة "[6].

كما اننا نجد صـــدى هذا المعتقد متجذرا في المجتمعات والى يومنا هذا، من خلال ممارسـات الاسـتعاذة من الفال السـيء وان الشـر والنقمة هي المسؤولة عن حدوث تلك الحوادث السلبية.

ونقرأ في نص يعود الى ممارستها سحرية، يتضح من خلاله ان الالهة قد انزلت غضبها على الانسـان التائب، وهذه الاسـطر تعويذة للصـفح والعفو عن الفرد المخطئ حيث تورد في نص ما يلي:

((أيها الإلـه، ذنوبي كثيرة، خطاياي فظيعة

أيتها الآلهـة، ذنوبي كثيرة، خطاياي فظيعة

أيها الإله الذي اعرفه، ويا أيها الإله الذي لا اعرفه،

ذنـوبي كثيرة، وخطايـاي فظيعة

أيها الإله انتهاكي لأوامرك كثير، وخطاياي فظيعة

أيتها الآلهة انتهاكي لأوامرك كثير، وخطاياي فظيعة

أيها الإله المعلوم المجهول، ذنوبي كثيرة وخطاياي فظيعة

أيتها الآلهة المعلومة المجهولة، ذنوبي كثيرة وخطاياي فظيعة

الآثـام التي ارتكبتها لا اعرفهـا

الخطايا التي ارتكبتها لا اعرفهـا

الشيء غير الظاهر الذي أكلته لا اعرفه

الشيء النجس الذي لمسته لا اعرفـه

لقد نظر إلي الإله بغضب وقلبـه يفيض غيظا

لقد ضربني الإله المليء قلبه غضبا وكأنني عدو

واغتاضت الآلهـة مني وجعلتني أشبه بمريض

الإلـه الذي اعرفه واجهلـه عذبني

الآلهة التي اعرفها واجهلها أغرقتني في الألم

ابحث عن مـلاذ، ولا من يمد يده إلي

ابكـي، ولا من ينهـد لمساعدتي

اصــرخ، ولا من يسمعنــي

الجمني الحزن وفاض بي ولا من يأبـه بي

نحو الهي الرحيم أتوجه، وأتضرع إليه بحرارة

أأُقبـل قـدم الهتي وأتمسح بهـا

إلى الإلـه الذي اعرفه والذي اجهله أتضرع بحرارة

إلى الآلهة التي اعرفها والتي اجهلها أتضرع بحرارة

أيهـا الإلـه عبدك لا يتكفئ عليك

لقد سقط من مياه آسنة، فأمسك بيده

بـدل آثامي، بأعمـال صالحـة

ولتذر الريـاح، الآثام التي ارتكبتها [7]))

إذا ما امعنا النظر في النصوص الادبية سنلتمس من أسطورة انليل وننليل–Ninlil [8] إذ إن امر الإلهة ننبارشيجونو–Ninshebargunu [9] لأبنتها ننليل بعدم الاغتسال في النهر أمام مرأى الإله انليل، وبما أن افعال الالهة ضمن مبدأ التشبيه فإن فعالياتهم من صميم حياة البشر، والتعاليم والاوامر الالهية التي تأكد على الحشـــمة والاتزان الاخلاقي، وهذه الاخلاقيات ما نجدها الى يومنا هذا في المجتمع الرافديني بغض النظر عن الاديان.

كما مبين في النص الاتي:

" في الجدول الصافي، يا امرأة، في الجدول الصافي لا تسبحي!

في الجدول الصافي، يا ننليل، في الجدول الصافي، يا امرأة، لا تسبحي

يا ننليل، لا تصعدي ضفة قناة نونبيردو[10]

فلسوف يراكِ السيد بعينيه الوهاجتين، بعينيه الوهاجتين سيراكِ،

بعينيه الوهاجتين سيراكِ الراعي، صانع الأقدار،

وعلى الفور يعانقكِ، وعلى الفور يقبلكِ! " [11].

وإهمال هذا النصـــح وعدم الانصـــياع للأوامر من قبل ننليل كان نتيجة له ما حدث وهذه السلوكيات ما هي الا سلوكيات فطرية تتبع الغرائز البشرية، اذ جاء في النص الاتي:

"حكيمة كانت كلمات التحذير،

ومع ذلك، في مجرى الماء الصافي، استحمت ننليل،

في مجرى الماء الصافي،

وتنزهت على طول القناة الأميرية!

والسيد ذو النظر البّراق، ذو النظر البّراق

سلّط عليها عينيه!" [12].

أدى عدم الاكتراث للنصائح الحكيمة، وقوع ما حذرت منه الأم أبنتها، إذ جرأ الإله انليل لاغتصابها، فكان هذا الفعل تسبب بإنزال العقوبة من قبل الآلهة والتي سبب غضبها ومقتها لذلك

الفعل الخارج عن الاخلاقيات المرجوة، فوجدت في ذلك فعلاً منافياً للأخلاق [13] وتضمنت عقوبة الاله انليل بإرساله إلى العالم الأسفل [14].

توارثت الاجيال منذ القدم اهم المبادي التربوية الاساسية في مجتمع بلاد الرافدين و التي تعتمد عليها البشرية والى يومنا هذا، لنجد ذلك متمثلا بمبدأ العقاب وما يحققه من اهداف منشودة لتجنب تكرار الافعال الغير مرغوبة، واستناداً على مبدأ التشبيه في تحليل سلوكيات تعامل الاباء مع البناء، نجد انزعج الاله إنليل من الضـجيج، فقال مخاطبا الالهة العظام، لقد اصـبح صـخب البشر شديدا عليّ وقد حرمني ضجيجهم من النوم، فلنأمر بالوباء ينتشر بين الناس إذ تذكر قصة اتراخاسيس [15]. بهذا الخصوص ما نصه.

"ولم تمض بعد الف ومائتا سنة

حتى توسعت البلاد وتكاثر الناس

وصارت البلاد تخور مثل الثور

فانزعج الإله انليل من ضجيجهم

اجل لقد سئم (أنليل) صخبهم

فقال مخاطبا الآلهة العظيمة:

لقد اصبح صخب الناس شديداً عليّ

وحرمني ضجيجهم من النوم

فلتأمر بانتشار الوباء بين الناس"[16]

وقد امتثلت الآلهة لأمر الاله انليل الذي وجهه لعقاب البشـرية وفوضـت (نمتار) Namtar الموكول بالأمراض والأوبئة لتنفيذ ذلك القصـاص وسرعان ما انتشر الوباء في البلاد واخذ يلتهم الناس التهاما، عندئذ اسـتنجد اتراخاسـيس بإله الحكمة (إنكي) داعيا اياه ان يخلص الناس من البلاء الذي هم فيه[17]. كما اتم رجل الطوفان كل شيء حسب اوامر الإله: اكمل بناء السـفينة و شـحنها بالناس والمؤن والحيوانات. ليبقى ممتثلا لأوامر الالهة منتظرا سـاعة حلول الطوفان كما يذكر لنا النص المسماري:

"ارسل عائلته الى ظهر السفينة

فأكلوا وشربوا

اما هو فكان يدخل ويخرج

فلم يستطع ان يجلس او يستقر

كان منسحق القلب يمتلأ فمه مرارة"[18]

كما يعتبر مبدأ التشفع من السلوكيات الفطرية التي تكتسبها المجتمعات بالتوارث، ودليل ذلك ما نجد صورته في سعي الالهة ننكال وهي تتشفع ببؤس لدفع الكارثة عن مدينتها، نائحةً أمام الإلهين آنو و انليل، اللذين أمرا بتدمير مدينة أور، وهي مصرة في الوقت نفسه على عدم هجر مدينتها، ولكن التماسها رُفض صدر الامر الالهي بالعقاب الحاسم :

بعد أن أعلنوا الدمار التام على مدينتي.

بعد أن أمروا بقتل أهلها.

في ذلك اليوم لم أهجر مدينتي.

إلى الإله أنو أسكب ماء عيني، أنا يقيناً أفعل.

والى الإله انليل، أنا بنفسي تضرعت.

لا تدع مدينتي تدمر، يقيناً أنا قلت هذا.

لا تدع سكانها يقتلون، يقيناً أنا قلت هذا.

يقيناً، الإله أنو لا يغير كلمته.

الدمار التام لمدينتي أمروا به.

وسيفنى أهلها وفق المصير الذي قرر[19].

توضح لنا اسطر نص المرثية ان اوامر الالهة العظام آنو وانليل، اللذين أمرا بعقوبة وتدمير مدينة أور، لا تناقش حتى من قبل الالهة الاقل شانا وتنفذ كما هي ولكن تضرع الالهة ننكال بان لا تباد المدينة نهائيا ولكن الامر الهي بالعقوبة الذ اصدر بحق المدينة اخذ مجرى التنفيذ واصبح حكما عليها.

مقتبسات سلوكية مكتسبة

السلوكيات المكتسبة تعد هي النظام والعلاقة الانسانية والتعاملات البشرية من حيث الاختلاف والتشابه، لاسيما الوقوف على الاحوال التي تنمي هذه الافعال والسلوكيات وما هي النتائج المترتبة على هذه السلوكيات [20]

تتمثل لنا سلوكيات المجتمع المكتسبة من افعال الالهة التي ضمنها الادب في بلاد الرافدين من خلال النصوص الادبية، لنراها جلية في امر الآلهة عشتار (انانا) والذي يدعو في مضمونه إلى سلوكيات الحداد وعادات يحملها المجتمع عند حدوث حالة الوفاة، ونستشهد في ذلك امر الإلهة (إنانا/عشتار) إلى وزيرها ننشوبر– Ninŝubur[21] إذ جاء حينما تولدت عندها رغبة بالنزول إلى العالم الأسفل امرها لوزيرها ننشوبر كما في النص قائلةً:

" يا فارسي، صاحب الكلمات الصادقة أنني الآن هابطة إلى العالم السفلي

وحين أبلغ العالم السفلي اندبني عند الخرائب،

وفي معبد "المجمع" اضرب الطبل من أجلي،

وفي بيت الآلهة تجول من أجلي،

أخفض عينيك من أجلي، وزم فمك من أجلي..

وألبس من أجلي ثوباً واحداً، كما يفعل الصعلوك الفقير"[22].

يصف لنا هذا المقطع الادبي حالة الحزن والندب على الميت كما تشير هذه الابيات الى ان هذا السلوك ما هو الا سلوك مكتسبا من افعال الالهة، ومن خلال هذه القطعة الادبية يثبت لنا ان السلوكيات المكتسبة هي عبارة عن ممارسات متواجدة في مجتمعنا الى يومنا الحاضر. وللفرح والسرور ايضا نصيبا من المقتبسات السلوكية التي توارثها المجتمع وفي ذلك نلتمس الامر الالهي الذي ورد في اسطورة انكي وننخرساك، والمحفوظة الان في متحف جامعة بنسلفانيا [23] لنجد الإله إنكي يمثل الدور الرئيسي في هذه الأسطورة مع الآلهة ننخرساك وتدور احداث هذه الأسطورة في ارض دلمون حيث نطلع من خلال الابيات الاتية :-

يا سومر! ايها البلد العظيم، يا اعظم بلد في العالم

في وسطك اتخذوا محل سكناهم

في بستانك الكبير، يأكلون طعامهم

ايه يا دار سومر! عسى ان تكثر اسطبلاتك! عسى ان تكثر ابقارك عسى ان

تزداد زرائبك! عسى ان تكثر اغنامك، بحيث لا يمكن ان تعد ولا تحصى![24]

فنلحظ من خلال الاسطر الادبية السابقة، حالة السكينة والسرور التي تدعو الى التنزه في المزارع والبساتين وهذه الطبيعة السلوكية المتوارثة لدينا التي يقودها الرخاء الاقتصادي والامن المعاشي. كما قد يلجأ الراوي الى وصف ذلك الرخاء بالملبس، كما في وصف (أنانا) وهي عازمة على[25] النزول الى العالم السفلي فيصف لنا ملابسها وأدوات الزينة بقوله :

((لقد تزينت بسبعة ((نواميس)).

وجمعت ((النواميس)) ووضعتها في يدها

كل ((النواميس)) كانت موضوعة (؟) عند قدمها.

وضعت على رأسها الشوكارا (Sugarra)، تاج السهل،

صففت (؟) على جبينها خصل [الشعر].

أمسكت بيدها ذراعا ومقياسا من اللازورد،

علقت على صدرها ((توائم)) من حجر النونز (Nunuz)

وضعت حول معصمها سوارا من الذهب

شدت حول صدرها درع – ((يا رجل تعال! تعال!))

كست جسمها بثوب – بالا (Pala)، ثوب السيدات

زوقّت عينيها بدهان – ((سيأتي (الرجل)، سيأتي))،.)) [26].

ويتضمن هذا المقتبس السلوكي التهيئ بحشمة وبهرجة للتاهب عند لقاء الرجال من قبل النساء وقد استمر هذا السوك ليصبح عادة مجتمعية الى يومنا الحالي لتوافق وهذا المفهوم.

وهناك ايضا مقتبسات سلوكية حيوانية ودواعي ومفاهيم تعامل معها الانسان كقواعد واساسيات تعرفه بالسلوكيات المكتسبة والتي تاخذ دورا مهما في الطبيعة التي يعيش بها الانسان، اذ نقراء في غضون ذلك ما يلي:-

سمع الذئب كلمة الكلب، اصبح قلبه خائفا

ايها الاقوى، الممنوح بالقوة الراكض السريع [27]

إذا وافق ان ولد طفل وكان القمر في حالة خسوف، فإن حياته ستكون، مظلمة و غامضة [28]

اذا حام الغراب فوق سطح بيت رجل باضطراب ونعق فصاحب هذا البيت سوف يموت [29]

اذا حمل النمل من بوابة المدينة شيئا الى الخارج، فسوف تأخذ اموال المدينة الى الخارج

اذا ادخل النمل شيئا من الخارج الى المدينة، فسوف تزداد اموال تلك المدينة [30]

اذا رأى شخصا في منامه انه يرى السماء والارض فسيكون هناك تحقيق امنية ما[31]

ان سكان بلاد الرافدين قد وجدوا من الاقتصاد والسياسة و الدين مؤثرا مباشرا على السلوك المجتمع في نمط الادارة لجميع مفاصل الحياة اليومية في تلك الحقبة الزمنية المبكرة كما اوجدوا اساليب معينه تعالج بها سلبيات بعض الظروف لبعض الحالات الاجتماعية بأوجه عديدة، المحيطة بالإنسان فلا عجبا اذا راينا ان فكره المجتمع عن الكون بوجه عام تتضح وتتكامل ايضا في هذه الفترة والدليل على ان ذلك قد حدث بالفعل هو في فكرتهم نفسها عن كل ما هو موجود على وجه البسيطة، وان الكون يشبه الدولة ولكن اساس التأويل، لم يكن الدولة

كما عرفت في الأزمنة التاريخية بالدولة كما عرفت في عصـــر ما قبل التاريخ وعبرت عن ذلك النصوص الادبية [32] اذ نقرأ في النص الاتي العديد من السلوكيات المكتسبة التي مازال المجتمع يتعامل بمبادئها الاســاســية، لنتأمل من خلال النص الاتي الســلوك المتعارف عليه في اعداد الاجيال للمجتمع الذي يلزمهم بالانضـباط السـلوكي الصـحيح ويخبرنا من خلال اسـطره بذهاب التلميذ وطبيعة سلوكه في المدرسة:-

" فدخلت على معلمي بقلب يخفق واديت له التحية باحترام

لقد قرا (مدير) مدرستي لوحي وقال

هناك شيء غير موجود وضربني بالعصا

وقال الشخص المشرف على الاناقة :

لقد تسكعت في الطريق ولم تنظم ملابسك وضربني بالعصا

قال الشخص المسئول عن السكون (اثناء التدريس)

لم تكلمت بلا اذن و ضربتني بالعصا

و قال الشخص الموكل بالاصطفاف:

لم استرخيت بالوقوف بلا اذن وضربني بالعصا.

وقال المسؤول عن حسن السلوك :" لم نهضت بلا اذن ؟" و ضربتني بالعصا

وقال مراقب البوابة

لم خرجت من البوابة بدون اذن ؟ وضربني بالعصا [33]

مقتبسات سلوكية طقوسية

وهناك كثير من الطقوس الدينية المجتمعية الخاصـة والتي يتبع خلالها سـلوكيات محددة تقام من اجل الحفاظ على قداســة تلك الطقوس واضــفاء الشــرعية الدينية عليها، وتنعكس تلك السـلوكيات بشـكل موروث مجتمعي يدخل في كثير من تفاصـيل الحياة اليومية، ونلحظ ذلك من خلال فكرة تقديم مغزل ومشـط من قبل الزوجة الشـابة يعني "نسـج خيط الحياة" او بتره، لذا فهي تعويذة لحياة طفل، توضــح ذلك منحوتة محفوظة الان في متحف اللوفر تســمى "الحائكة" والتي تمثل امرأة في طور امومة قريبة وهي تغزل مكبا بالقرب من سـمكة "رمز الجنين" وهناك شـخص

في حالة انتظار اعطاها نسمة الحياة بواسطة مروحة، حيث اعتبرت التعاويذ والتمائم نوع من الحرز ضد حدوث الشر وسلك المجتمع بهذا النحو العقائدي والذي يحميه من الشر المحدق به وهناك نص يصف الجنية لامشتو التي تصيب المولود الجديد:

"خلقها آنو ورباها ايا وامر انليل ان يكون لها وجه كلبة ويدان نحيفتان

الا ان اصابعها طويلة ومخالبها اطول وذراعيها مبقعتان" (34)

اما عن السلوك الطقوسي المتبع من قبل الملوك خلال العصر الاشوري الحديث فكانوا يلبسون القلادة مع تعاويذ معدنية صغيرة تمثل رموز الالهة، وكذلك احجار صغيرة او رأس معدني لاله البازوزو، وهذه السلوكيات نراها متوارثة لدى المجتمعات الى يومنا هذا. وربما لبسة تلك التمائم والتعاويذ ايضا حول رقبة النساء من دوافع عقائدية لحماية اطفالها من اللامشتو. وقد جاء ذكر التعويذة في الامثلة السومرية فقيل فيها:

"انا كاهن التعويذة لوحة

بأمر الاله مردوخ"(35).

ان غاية الانسان لاجراء الطقوس الدينية هي الحصول على نتائج حتمية من شانها تقرير مصيري لامور غيبية او خارجة عن القدرة البشرية و بالنسبة للبشر وسلوكهم لاجراء وهذه الطقوس يمكنهم من استجلاء قضيا مهمة تتعلق بحياة الفرد او المجتمع (36)، وبمقدورنا ان نعتبر اختبار المحنة هو عبارة سلوك ديني طقوسي، تطلع من خلاله الالهة على قضايا قانونية عجز الملك والكهنة والقضاة في ايجاد الدليل والبرهان للحكم فيها، فيلجئ بذلك الى طقس المحنة وعادة ما يكون الاختبار النهري، باختبار الشخص ان كان بريئا ينجو وان كان مذنبا يغرقه النهر المقدس، وبها يبت في القضية من قبل الالهة : وذلك ما نجده من خلال ترنيمة ننكال

" **إلى موقع المحكمة بحضور الهة السماء والارض** "(37)

ونجد صدى الاختبار النهري في سلوك مشابه له يتبع الى اوقات قريبة من يومنا هذا في المجتمعات البدوية يدعى اختبار(اللعقة) او (اللطعة) ويتلخص هذا النوع من الاختبار لمعرفة الكاذب من الصادق في حالة حدوث بعض القضايا المجتمعية المهمة والتي تنعدم فيها الادلة و يتلخص هذا الاختبار بحرق لسان الشخص بواسطة قطعة معدنية، اذ يتعرض لها الشخص المتهم ليكون الحكم معتمدا على وجود اللعاب ونسبة الحرق الذي سيصيبه من جراء هذه العملية (38)

ويبدو ان الطقوس التي كانت تمارس للاعتراف بالأخطاء او الذنوب (التوبة) التي يتدخل فيها الكاهن، ما هي في جوهرها الا عملية تنظيمية لسلوك الفرد و المجتمع، فنجد ان الكاهن يسأل التائب بعد ان يسمع اعترافه، ان كان قد اساء الى إله او آلهة معينين ويبدو ان

ذلك كان الخطيئة الكبرى للذنب، ومن ثم ينتقل الى امور يمكن ان تحدث في المجتمع، فيسـأله ان كان قد مارس الكذب، او عاند سـيده، اثار العداوة بين العوائل والاصـدقاء، وما الى ذلك من مخالفات دينية وقانونية [39]،

من ضـمن العقوبات التي توجهها الالهة الى من يعصـي اوامرها هو المسـخ (تحويل الشخص الى طين او حجارة) وتعتبر هذه العقوبة من اشد العقوبات التي توجه الى اله معين او شخص ما قد فسق بالشعائر الدينية ولم يلتزم بالطقوس المقدسة [40]، وهذه النوع من العقوبات متوارثا ليكون سلوكا طقوسا كعقاب على الخطيءة،لنجده على السنتنا الى يومنا هذا ولا سيما خلال القصـص الدينية المتوارثة، ويثبت لنا النص الادبي هذا النوع من السـلوك الطقوسـي والمفهوم الديني :-

واستولى على سلطات انليل فأضحت الطقوس والشعائر مهجورة

ثم طار انزو بعيدا وراح إلى مخبئه

لقد حل قوله محل قول الإله دور – أنكى

فما عليه إلا أن يأمر، وكل من يلعنه انزو يمسخه طينا)) [41].

لم تغفل القصائد الملحمية في ادب بلاد الرافدين القديم عن القدسية الطقوسية في مباركة العديد من الفعاليات الحياتية وذلك لتكامل جميع معطياتها الادبية في القصـص الملحمية [42] لنجد دعاء كلكلمش وتوسله بالإله ورجاءه ليمنحه صديقا مخلصا قبل ان يتعرف على انكيدو، فيدعو من الاله انليل ان يصـدر امره ليقدر له رفقا ومصـاحب وفعلا يحدث ذلك بمصـاحبة انكيدو حيث ورد في اللوح الاول من الملحمة ما يلي :

فتح جلجامش فمه يذكر لامة

عسى ان ينزل علي ذلك بأمر من الاله انليل

عسى ان احصل انا على صديق مشاور

سأحصل انا على صديق مشاور [43]

واذا ما قرأنا تراتيل الكهنة التي ينشـدونها عند الحوادث الطارئة في بلاد الرافدين سـنجهم يزعمون انها طقوس دينية تتخذ كإجراءات احترازية ضد ذلك الطارئ، وبعض تلك الطقوس وصل الينا الى فترات متأخرة كعادات وتقاليد اجتماعية ومثال على ذلك حالة حدوث خسـوف حيث يشير النص الاتي

وناح شعب الرؤوس السود كأهل المراثي وجرت الدموع

وعسى ان يستمر الباكون والنائحون حتى يكسروا القيثارات عند نواحهم

وعسى ان يستمر كهنتها (أي المعابد) بتقدم القرابين فيها

وعسى ان يمجد النائحون على قيثارة الملك والالهة[44]

حيث نجد صدى بعض السلوكيات الطقوسية التي كان يعمل بها المجتمع وما زال امثال بعض التراتيل التي تقرا عند حدوث طارئ كتلك المعمول بما عند حدوث ظاهرة طبيعية معينة مثل (خسوف القمر) حيث يذهب سكان المنطقة التي يحدث فيها الخسوف الى التجمع والطرق بالعصي والاواني المعدنية محدثين اصوات عالية، ضنا منهم ان مثل هذه الافعال تساعد القمر ليشـــرق من جديد بعد ان ابتلعه الحوت مرددين الاهازيج ومن ضـــمن تلك الاهازيج (حوته يا منحوتة هدي كمرنا العالي) [45]

كما عبر ســكان بلاد الرافدين عن بعض الحالات الســلوكية بوصــفهم بعض الظواهر المحيطة بهم والخارج عن حدود الطبيعة المعروفة كونها مفاهيم طقوسية تتحكم بها الالهة وكذلك جرة العرف بالتعامل معها وفق سلوك طقوسي معين، فمثلا نجد مفهوم طقوسي يصف الملح وهو لنا ماده جامده او معدن كانه كائن حي له ان يلجا اليه الناس في المجتمع اذا وقع احدهم ضحيه السحر فهوه عند اذن يخاطب الملح على وجه التالي :

ايها الملح، يا من خلقت في مكان نظيف

طعاما للالهه جعلك " انليل "

بدونك لا تمد مائدة في (ايكور)

بدونك لا ينشق البخور اله او ملك او سيد او امير

انا فلان ابن فلان

وقعت اسيرا للسحر

وقعت محموما في احابيله

ايها الملح حل عني العقدة

ارفع السحر عني! وكخالقي

أرفع المجد والتسبيح لك. [46]

كذلك يعتقد بان القمح كالملح له قوه طقوسية خاصه فيلجا المرء اليه كانه كائن حي فاذا قدم انسان شيء من الطحين لاسترضاء احد الالهه مخاطبا فيقوله.

سأرسلك الى الهي الساخط، الهتي الساخطه

فقد يمتلأ القلب من كليهما من غضبا علي

اصلح بيني الهي الساخط،الهتي الساخطة (47)

يوصــف القمح بهذه الابيات على انه مادة حية له روح الارادة والتصــرف و ليس بالمادة الجامدة بال له شخصيه وذات مستقلة، وبهذا المنظور يراها المجتمع في بلاد الرافدين بروح غير تلك الروح التي ينظر بها الى المادة كما في الســحر و الدين والفكر التأملي في عالمنا، ومن هذا المفهوم ينظر الى العلاقات بين الظواهر الطبيعية و كأنها علاقات اجتماعيه و عن نظامها في اداء وظائفها (48) واذا ما تأملنا حقيقة الفهم لما يشابه هذه الحالة للسلوك الطقوسي للملح والحنطة المتوارث في مجتمع بلاد الرافدين الى يومنا هذا نجد المثل الذي يقال عند الخيانة او النكران (الملح والزاد ما غزر ولا فاد) وعن مفهوم هذا المثل الشـــعبي يقال من قبل الســـلف بان الملح والزاد والمقصـــود به الخبز انه يقف ليحاســـب الشـــخص المتعدي، وهذه الوقفة هي ما يدور في ضمير الشخص للمحاسبة لصالح الحق، والذي في بعض الاحيان يدفعه للاعتراف.

الاستنتاجات

1- جمع الادب الرافديني بين ثناياه الكثير من التفاصيل والتي توفر بدورها وثائق مؤكدة عن سلوكيات المجتمع بشكل مباشر او غير مباشر وذلك بحسب ما تذكره النصوص ويستنتجه الباحثون.
2- إن سلوكيات المجتمع تحدده معطيات عديدة اهمها: سلوكيات فطرية تولد مع الانسان، سلوكيات مكتسبة من الاجيال السابقة، سلوكيات طقوسية بحسب الوازع الديني.
3- تعتبر السلوكيات الفرد الفطرية من اهم النشاطات الاجتماعية التــي تقوم بها المجتمعات البشرية بدون تكلف او تصنع وعلى غرار ذلك سـكان بلاد الرافديــن.
4- السلوكيات المكتسبة تعد هي النظام والعلاقة الانسانية والتعاملات البشرية من حيث الاختلاف والتشابه، لاسيما الوقوف على الاحوال التي تنمي هذه الافعال والسلوكيات.
5- ان سكان بلاد الرافدين قد وجدوا من الاقتصاد والسياسة والدين مؤثرا مباشرا على السلوك المجتمع في نمط الادارة لجميع مفاصل الحياة اليومية في تلك الحقبة الزمنية المبكرة كما اوجدوا اساليب معينه تعالج بها سلبيات بعض الظروف لبعض الحالات الاجتماعية بأوجه عديدة.
6- ان غاية الانسان لاجراء الطقوس الدينية هي الحصول على نتائج حتمية من شانها تقرير مصيري لامور غيبية او خارجة عن القدرة البشرية.

الهوامش والمصادر:

(1) علي، فاضل عبد الواحد، الطوفان، بغداد،1975، ص 69

(2) كاظم. حكمت فياض حسين، الفطرة في الاسلام، دار الكتب العالمية، بيروت،2008، ص22-23.

(3) الراوي فاروق ناصر، جانب من الحيات اليومية، حضارة العراق، ج2، بغداد، 1985، 376ص

(4) السحر في بلاد الرافدين، مصدر سابق، ص 91

(5) Mair، L،In Troduction To Anthr oplogy، Oxford، 1965، p; 192.

(6) الدوري، رياض عبد الرحمن امين، السحر في العراق القديم في ضوء المصادر المسمارية، بغداد،2009. ص 46.

(7) جورسج بوبية شمار، المسؤولية الجزائية في الآداب الآشورية والبابلية، ترجمة: سليم الصويص، (بغداد: دار الرشيد للطباعة والنشر 1981م)، ص50-51.

(8) يعود تاريخ تدوين هذه الأسطورة إلى عام (1700 ق. م) على وجه التقريب؛ ينظر: قاسم الشواف، ديوان الأساطير، ج1،ص39.

(9) هي من بين إلهات الأمومة في العراق القديم؛ ينظر: قاسم الشواف، ديوان الأساطير، ج1، ص165.

(10) في نص آخر يأتي ذكر لفظة نونبيردو بمعنى قناة أميرية (لا تتنزهي، أي ننليل، على طول القناة الأميرية) ؛ قاسم الشواف، ديوان الأساطير، ج1، ص40.

(11) جاكوبسن، ما قبل الفلسفة، بغداد،1960، ص179 – 180؛ كذلك: قاسم الشواف، ديوان الأساطير، ج1، ص40.

(12) قاسم الشواف، ديوان الأساطير، ج1، ص40.

(13) كريمر، صموئيل نوح، من ألواح سومر، ترجمة طه باقر، مراجعة احمد فخري، بغدد، 1956، ص165.

(14) يذهب الأستاذ طه باقر إلى أن هذه الأسطورة كانت تهدف إلى بيان أصل بعض الآلهة ومنهم الإله القمر سين وأخوته الثلاثة آلهة العالم الأسفل؛ ينظر: طه باقر، مقدمة في أدب العراق القديم، لبنان، 2001، ص119.

(15) السعدي، حسين عليوي، الاله انليل في بلاد الرافدين، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، 2009، ص10

(16)علي، فاضل عبد الواحد، الطوفان في المراجع المسمارية، بغداد، 1975، ص 56-57. ينظر كذلك: قاسم الشواف، ديوان الأساطير، ج2، ص250.

Jacobsen، Th.، TD،، P. 118.

(17) Dalley، S.، M M، P. 25-27.

(18) علي، فاضل عبد الواحد، سومر اسطورة وملحمة، بغداد،1997، ص 153؛ لابات، رينية، المعتقدات الدينية في وادي بلاد الرافدين، ترجمة وليد الجادر والبير ابونا، بغداد، 1988، ص 30-31.

(19)Kramer، S.N.، ANET، P. 458-459.

(20)عبد الهادي.نبيل، تشكيل السلوك الاجتماعي، 2020، ص34.

(21) يرد اسم هذا الوزير بصيغة المذكر وننشوبر المذكر يرد على انه وزيراً للإله آنو ؛ خزعل الماجدي، إنجيل سومر، ص110؛ وفي النسخة الآشورية من الأسطورة يحمل اسم وزير الإلهة (إنانا/عشتار) تسمية ببسوكال ؛ فاضل عبد الواحد علي، سومر أسطورة وملحمة، ص105؛ والصيغة المؤنثة نينشابور جاءت في الأسطورة بصيغتها الآشورية (نينشابور، سندي الثابت، شوجال أعطاني النصيحة الحكيمة)؛ دايان ولكشتاين و صموئيل نوح كريمر، إينانا ملكة الأرض والفردوس أسطورة بلاد ما بين النهرين، تر: شاكر الحاج مخلف، دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد : 2008)، ص125.

(22)كريمر، صموئيل نوح، من ألواح سومر، ص268 – 269.

(23) كريمر، صموئيل نوح، من الواح سومر، ص 240.

(24) Benite، G.، Enki and Ninmah and Enki and the world Order، London، 1969، P. 117-137.

(25) البياتي سوسن هادي، اساطير العراق –القديم البابلية والسومرية، اطروحة دكتوراه، غير منشورة،جامعة تكريت،2004، ص28.

(26) عشتار ومأساة تموز: 188-189.

(27) عبد اللطيف، سجى مؤيد، الحيوان في الادب العراق القديم، رسالة ماجستير، غير منشورة، جامعة بغداد، 1997، ص 316.

(28) رشيد فوزي " علم الفلك بدايته وانجازاته"، مجلة المؤرخ العربي، ع 5، بغداد، 1997، ص210.

(29)الجواري، هيثم احمد، نصوص الفأل البابلية في ضوء المصادر المسمارية، رسالة ماجستير، غير منشورة، جامعة الموصل، 2005، ص 63

(30)الجواري مصدر سابق، ص 86.

(31) الجواري، مصدر سابق، ص 124.

(32) فرانكفورد، ما قبل الفلسفة، ت: جبرا ابراهيم جبرا، بغداد، 1960، ص 150.

(33)الراوي فاروق ناصر، مصدر سابق، ص382.

(34) السحر في بلاد الرافدين، مصدر سابق، ص 91

(35) المصدر نفسه،ص 89

(36) مصطفى، هبة حازم محمد، الاختبار (المحنة) في العراق القديم في ضوء المصادر المسمارية، اطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة الموصل، 2011، ص161.

37(Sjobery،W. Nungal، In E-KUR..p31

(38) سليمان.عامر، محاضرات الكورس الاول لطلبة الماجستير، 2003/3/8 .

(38) جورج كونتينو، الحياة اليومية، ص448.

(40) اسطورة انزو، اللوح :1، العمود: 2، الاسطر: 33- 53.

(41) سومر اسطورة وملحمة: 129.

(42) باقر.طه، مقدمة في ادب العراق القديم، بغداد،2010، ص 125.

(43) نائل حنون، ملحمة كلكامش، دمشق، 2006، ص 84

(44) Ebling. E " Ein Gebet an Finen Refins Ter ten Gott aus neu Assyrischer zeit ".

Orientalia، Berlin، Vol، 17، 1948، p، 416-422.

(45) الجمعة، رشا عبدالوهاب، نظرة العراقيين القدماء للكوارث الطبيعية في ضوء المصادر المسمارية، رسالة ماجستير،غير منشورة، جامعة الموصل، 2007، ص 7.

(46) فرانكفورد، ماقبل الفلسفة، ت: جبرا ابراهيم جبرا، بغداد، 1960، ص 152.

(47) مصدر نفسه، ص 152.

(48) مصدر نفسه، ص 152.